الجيل الرابع للقيادة في العراق – معالم التحول وبوادر النهوض

في زمن تتغير فيه المعايير القيادية بوتيرة غير مسبوقة، لم يعد مقبولاً أن تستند مؤسسات الدولة إلى مناهج الإدارة والقيادة التي صيغت لعالم مختلف تمامًا عن عالم اليوم . نحن نشهد اليوم بروز نمط جديد من القيادة يُعرف في الأدبيات الحديثة بـ"الجيل الرابع للقيادة"، وهو ليس مجرد تصنيف زمني، بل يمثل تحولًا مفاهيميًا عميقًا في فلسفة القيادة وأدواتها وأهدافها.

إن تتبع تطور النماذج القيادية في الفكر الإداري يوضح لنا هذا التحول:

- الجيل الأول ارتبط بالقيادة الكاريزمية والفردية، حيث كانت السلطة مركزية والقرار يُتخذ من أعلى الهرم الوظيفي.
- الجيل الثاني أضاف بعض السمات الإدارية الحديثة، مثل التنظيم وتقسيم العمل، لكنه ظل تقليديًا في بنيته ويعتمد على البنية الهرمية الصارمة.
- الجيل الثالث تميّز بمحاولة إدماج مفاهيم الحوكمة، والعمل الجماعي، ومشاركة الأطراف المختلفة في اتخاذ القرار، مع بداية توظيف التكنولوجيا كأداة داعمة للامركزية.

أما الجيل الرابع للقيادة، فهو يمثل تحولًا عميقًا في جوهر مفهوم القيادة، حيث لم تعد تُعرّف بالموقع الإداري، بل بالقدرة على التأثير في بيئات ديناميكية معقّدة، باستخدام أدوات المعرفة، والتحليل الرقمي، والتفكير الاستراتيجي الشبكي . هذا الجيل من القيادة يتعامل مع التغيير كحالة دائمة، ويعيد تشكيل المؤسسات من الداخل لتكون مرنة، متعلمة، وقادرة على التجدد المستمر.

ويُعد المفكر المعاصر جون كوتر (John Kotter) أحد أبرز من مهدوا لهذا المفهوم من خلال دعوته للانتقال من "الإدارة" إلى "القيادة التحويلية"، فيما أسهم باحثون في معاهد مثل MIT و Harvard في تطوير أدوات الجيل الرابع، مثل: "قيادة البيانات الضخمة"، و"القيادة التكيفية"، و"الذكاء التنظيمي" .

كما أسهم الفيلسوف السوسيولوجي زيجمونت باومان في بلورة مفهوم "السيولة في العالم الحديث"، مشيراً إلى عالم يتغير باستمرار ويفتقر إلى الثبات، ما يعزز الحاجة إلى نمط من القيادة يمتاز بالمرونة والقدرة على التكيّف وسط بيئات متقلبة وغير مستقرة.

وتشير تقارير المنتدى الاقتصادي العالمي (WEF) إلى أن أكثر من 50% من وظائف القطاع الحكومي حول العالم ستتأثر بالرقمنة والتحول الرقمي بحلول عام 2030، مما يتطلب قيادات جديدة تمتلك كفاءات تتجاوز الإدارة التقليدية إلى مهارات التفكير التحليلي، والتواصل الشبكي، والقدرة على اتخاذ القرار في بيئات معقدة ومليئة بعدم اليقين.

وتؤكد مؤشرات التنمية البشرية الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) أن العراق، وعلى الرغم من امتلاكه موارد بشرية شابة وطاقات كامنة، ما زال يعاني من فجوة في "فاعلية الحكومة"، و"جودة الخدمات العامة"، وهو ما يُبرز الحاجة الماسة إلى نمط قيادة يتسم بالتحول الذهني أولاً، قبل التحول التكنولوجي.

وفي هذا السياق، تعكس البحوث المنشورة في هذا العدد من مجلة الفكر القيادي توجهًا عراقيًا واعدًا نحو هذا النمط الجديد من القيادة، فالبحث في القيادة الرقمية والتحول المؤسسي في أمانة بغداد، والدراسة التي تتناول العلاقة بين الحوكمة الإلكترونية وجودة الخدمات الصحية، وكذلك الورقة التي تبحث في دور ديوان الرقابة المالية في تقويم الأداء الحكومي، كلها تمثل مؤشرات على تحوّل فكري ومؤسساتي نحو قيادة تقوم على البيانات، وتستند إلى التكنولوجيا، وتتخذ قراراتها بناءً على تحليل الواقع، لا على الحدس أو العرف الإداري.

ولا يمكن في هذا السياق إغفال أهمية الرؤية الاقتصادية المتقدمة، كما تناولها بحث الدولرة وتحديات السياسة النقدية في العراق، الذي يُبيّن الحاجة إلى قيادات مالية تدرك البعد السيادي للقرار النقدي، وتتحرك في بيئة عالمية معقدة تحكمها تقلبات الأسواق والتوازنات الجيوسياسية. ومثل ذلك يُقال في الدراسة التي تناولت ملف الربط السككي مع دول الجوار، والتي توضح كيف أن التخطيط العلمي في العراق يحتاج إلى عقل استراتيجي منفتح على العلاقات الإقليمية، قادر على إدماج البلاد في شبكات النقل والاقتصاد الإقليمي.

إن العراق، وهو يسعى جاداً إلى إعادة البناء بعد سنوات من التحديات، يقف اليوم على أعتاب فرصة تاريخية تتمثل في تمكين الجيل الرابع من القادة. وهذه ليست مسألة تتعلق بالأعمار أو بالمواقع الوظيفية، بل بأسلوب التفكير، وبقدرة الفرد أو المؤسسة على إدارة التغيير، وتحويل الأزمات إلى فرص، والاعتماد على الأداء القائم على النتائج، لا على التقليد أو الإجراءات الروتينية.

ولعل أحد المؤشرات الإيجابية في هذه المرحلة أن معظم الباحثين في هذا العدد من المجلة يجمعون بين الخبرة الأكاديمية والممارسة الإدارية، مما يخلق تفاعلاً مثمراً بين النظرية والتطبيق، ويفتح المجال أمام بناء جيل قيادي يجمع بين الرؤية والفعل، وبين الفكر التنفيذي والقدرة التأملية.

وفي الختام، فإن مجلة الفكر القيادي، وهي تضع بين يدي القارئ هذا العدد النوعي، لا تسعى فقط إلى عرض دراسات تحليلية، بل تؤدي دوراً في توجيه دفة النقاش الوطني نحو إعادة تعريف القيادة في العراق. إنها دعوة لإعادة هيكلة المؤسسات، وتمكين الكفاءات، وتأسيس بيئة مرنة تتبنى مفاهيم القيادة الحديثة، بما يضمن للعراق مكانة فاعلة في عالم لا يرحم التردد ولا ينتظر المتأخرين.

د. عبد الكريم كاظم عجيل

رئيس تحرير مجلة الفكر القيادي